درعا والأسد من يتحرّش بمن؟

إبراهيم الجبين
كاتب سوري

حين يقال إن ما يحدث في درعا نابع فقط من رفضها إعادة عقارب الساعة إلى ما قبل التفاهمات التي أجريت برعاية روسية، والتي نشأت عنها أوضاع جديدة، فهذا يعني أن قراءة الكثيرين للمدينة الجنوبية التي يعتبرها السوريون مهد ثورتهم لا تراعي ما يعصف بعقل رئيس النظام السوري بشار الأسد هذه الأيام.

التسويات التي عقدها النظام في أكثر من منطقة، بما فيها اتفاقاته الأمنية والنفطية مع حزب العمال الكردستاني بفرعه السوري، جميعها كانت تعتمد قواعد المؤقت أكثر من كونها اتفاقات دائمة. وغالباً ما كان طرفا أي اتفاق من هذا النوع يعلمان أن الهدف منه كسب الوقت، وأن المآل سيكون باختصار بسط سيطرة الدولة من جديد، أي عودة الأسد.

العين الأميركية التي تراقب الوضع ما بين الروس والأسد في الجنوب تراقب كيف يتضاءل دور العامل الإيراني في ظل عجز الأسد عن كسر القرار الروسي بعدم شن هجوم كاسح على درعا

في الشمال كانت اتفاقات أستانة كفيلة بخلق أوضاع اتفقت عليها كل من تركيا من جهة، وروسيا وإيران من جهة ثانية، ومن خلفهما الأسد، تفرض على الجميع التمسك بوقف إطلاق النار، ولكنها لا تمنع من المناوشات والقصف شبه اليومي، حتى من قبل الضامنين أنفسهما، الروسي والإيراني. وحده الجنوب بقي معادلة معقدة أكثر من بقية المناطق السورية.

في السويداء تطلب الأمر من الأسد الاستعانة بإيران والتلويح بتهديد داعش المستمر، الإيرانيون يحاولون تفتيت المجتمع الدرزي الموحد واجتذاب الفاعلين فيه من الأعيان إلى العسكريين وشيوخ العقل، وإن تطلب الأمر يحيّدونهم جانباً بالاغتيال كحالة الشيخ وحيد البلعوس الذي ظهر ابنه مؤخراً ليتهم صراحة حزب الله وإيران باغتيال والده. أما داعش فهي السلاح المذهبي الذي يجري رفعه بين الوقت والآخر لإثارة رعب الأهالي من عصابة تكفيرية قد تجتاح السويداء وتفعل بها مثلما فعلت بجبل سنجار مع الإيزيديين.

في درعا الأمر مختلف، فهي ليست فقط بالنسبة إلى الأسد، المكان الأول الذي تفجّرت منه مشكلته، وسبب الصداع الرهيب الذي يعاني منه طيلة عشر سنين ماضية، بل هي أيضاً حاجة أساسية له كي يثبت أن الأمر استتبّ له. من هنا فهو لا يفاوض على قصة السيطرة عليها بالكامل وإعادتها كما كانت قبل العام 2011، وهذا ما لا يمكن لأهل حوران تصوّره بحكم أنهم قد عبروا مرحلة الأسد إلى نمط عيش جديد.

حاصرت قوات الأسد بفرقتها الرابعة وألياتها درعا، مدعومة بالميليشيات الإيرانية. والسؤال الهام هنا، والذي منه ستنبثق كل الأسئلة القادمة؛ ما الذي يمنع الأسد من النجاح في احتلال درعا من جديد؟

خلال الأيام الماضية ذكرت وول ستريت جورنال الأميركية أن "روسيا تجد أن الحفاظ على السلام في سوريا أصعب من خوض الحرب" وذلك في إشارة إلى ما يحدث في درعا جنوبي البلاد. وأضافت أن "التصعيد الذي تشهده درعا من قبل قوات النظام السوري يؤدي إلى تآكل هدف موسكو في ترسيخ نفسها كطرف رئيسي في الشرق الأوسط، وتلك الاشتباكات الآن تهدد بتقويض مصداقية روسيا في سوريا، على الرغم من المكاسب التي حققتها من خلال الانحياز إلى بشار الأسد للحفاظ على قبضته على السلطة".

العين الأميركية التي تراقب الوضع ما بين الروس والأسد في الجنوب، ترى أيضاً كيف يتضاءل دور العامل الإيراني هناك، في ظل عجز الأسد عن كسر القرار الروسي بعدم شن هجوم كاسح ضد درعا. لكن إلى متى سيقدر الأسد والإيرانيون على تحمّل الوضع الساكن المتوتر في الوقت نفسه بهذا الشكل؟

هذا الجمود الذي يزيده الأسد صعوبة بتطبيق حصار جائر على الأهالي في درعا، بدأ بحظر دخول الأدوية ووصل إلى حظر دخول الطحين قبل يومين، لن يتمكن من كسره سوى خرقين، الأول قد يفعله الأسد، وحينها سيجد نفسه بمواجهة الروس. والخرق الثاني قد يحدث بأيدي أهل حوران أنفسهم، الذين تنشر الأنباء أنهم هم من يقومون بشن عمليات ضد قوات الأسد، ما دفع الأخيرة إلى الرد عليهم بقصف عنيف وتحليق للطيران الاستطلاعي روّع السكان.

ويكاد يكون طبيعياً أن يحاول مقاتلو درعا فتح طريق من أجل تزويد المدينة بالمؤن، وهم أصحاب تجربة طويلة مع التهريب عبر الحدود السورية – الأردنية، باب الرزق الذي سدّه بوجوههم قبل سنوات رامي مخلوف واجهة الأسد آنذاك، حين استولى على المناطق الحرة وأتم حظراً قاسياً على أعمال الحوارنة الذين كانوا يسترزقون من بيع الدخان المهرّب والشاي والبضائع البسيطة. ما أسهم في اندفاعهم بقوة وبوعي تشكّل من متطلباته المستلزمات الحياتية الأساسية، ليكونوا جذوة الثورة ضد الأسد ونظامه وليس من دون معنى أن تكون صور مخلوف هي أولى الصور التي تم رفعها في مظاهرات درعا والهتاف ضده قبل الأسد.

الآن يعود التجويع من جديد، ولكنه عائد هذه المرة مع كيمياء جديدة، فلم يكن في الماضي لا روس ولا إيرانيون، بين الأسد ودرعا. والمختلف اليوم يفرض بنفسه تغيير الآلية، وهو ما لا يتقنه الأسد الذي اعتقد أن القوة الغاشمة وحدها كفيلة بحل أي إشكال سياسي أو اجتماعي أو غيره. لكن يبدو أن الروس أنفسهم فقدوا قناعتهم بالقوة الغاشمة والاجتياح وإلا لكانت درعا اليوم نسخة ثانية عن حلب. ولكنهم وعلى النقيض من ذلك، وكي يمنعوا الأسد من أي مغامرة جديدة أرسلوا أرتالاً من الشرطة العسكرية الروسية لتتمركز في وسط درعا.

ستستمر حاجة الجنوب السوري إلى التمرّد، ومعها ستتواصل حاجة الأسد إلى بسط السيطرة، وانكفاء أي منهما الآن، سيزيد من الأمور تفجّراً بدلاً من أن يطفئ النار. فإذا انكسر الأسد في درعا، ستلحق بها مناطق أخرى في سوريا، وقد فعلت مصياف وغيرها، وها هي الدعوات في حلب للتظاهر ضد الجوع تتصاعد من داخل مناطق سيطرة الأسد لا من خارجها هذه المرّة. فالحياة أصبحت خانقة أكثر مما يمكن احتماله لدى أكثر السوريين ولاءً للأسد.

يموت لبنان كي تحيا «الجمهوريّة الإسلاميّة»!

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

مع انتخاب إبراهيم رئيسي رئيسا للجمهورية في إيران، بات "الحرس الثوري" يسيطر على كلّ مفاصل السلطة بصغيرها وكبيرها وفي أدّق التفاصيل. ليس فرض "المرشد" علي خامنئي إبراهيم رئيسي رئيسا سوى تعبير عن رغبة في تنفيذ انقلاب حقيقي يجعل من "الحرس الثوري" الحاكم الفعلي لـ"الجمهوريّة الإسلاميّة" من دون منازع.

يبدو لبنان ضحيّة من ضحايا هذه السيطرة الكاملة لـ"الحرس الثوري" على إيران. سيزداد الوضع فيه سوءا في ظلّ إصرار إيران على الإمساك بكلّ أوراقها في المنطقة من أجل فرض تسوية تتفق مع شروطها على الإدارة الأميركيّة. تعني هذه السيطرة بين ما تعنيه الرغبة في تكريس واقع يتمثّل في أن "الجمهوريّة الإسلاميّة" وضعت يدها على لبنان ولن تقبل بعودة ما يسمّى "لبنان القديم"، أي لبنان المزدهر الذي تسوده ثقافة الحياة.

ليس ما يعبّر عن هذه الرغبة الإيرانية أكثر من مقال نشرته صحيفة "كيهان" التي تعكس توجّه المحافظين، أي "الحرس الثوري" الذي سيسيطر على وزارة الخارجيّة عبر أحد المنتمين إليه، وهو أمير عبداللهيان. لم تعد إيران في حاجة حتّى إلى القناع الذي يضعه محمّد جواد ظريف، وهو قناع يظهر عبره بين حين وآخر أنّه إنسان طبيعي يمتلك ضحكة وابتسامة. في عهد رئيسي، الذي يعبّر عن توجّهات "المرشد"، لا مكان لضحكة أو ابتسامة!

كلّ الطوائف اللبنانية مصابة بقلق سياسي داخلي من قوّة حزب الله الإقليمية واللبنانية الداخلية السياسية وتعرف أنّ العودة إلى سلطة 1920 يجب أن تمرّ بتقليص أدوار حزب الله الإقليمية واللبنانية

أفردت "كيهان" مساحة للرد على المواقف الأخيرة للبطريرك الماروني بشارة الراعي الذي انتقد "حزب الله" بسبب إطلاقه صواريخ من جنوب لبنان في اتجاه إسرائيل، مذكّرا باتفاق الهدنة للعام 1949. قالت الصحيفة "هناك من يسعى إلى تسعير تجربة قرية شويا (الدرزيّة) في جنوب لبنان ونقلها إلى قرى أخرى فيها طوائف جديدة. أما المهم بالنسبة إلى أصحاب عمليات النقل فهو التقاطعات بين طوائف جديدة تشكل عند تجمّعها تحالفاً بين طوائف يكون مرتبطاً بجهات خارجية ولديه هدفان: السيطرة على السلطة في لبنان وإلغاء مشروع مقاومة العدو الإسرائيلي (..) الكاردينال الماروني الراعي هو صاحب هاتين النقطتين أو الداعم الأساسي لهما. توصّل (الراعي) إلى أنّ لبنان يعترف بـ"إسرائيل" منذ اتفاق الهدنة في العام 1949، لافتاً إلى أنّ اشتباكات كثيرة حدثت بين قوات من حزب الله وأبناء الكثير من القرى الجنوبية".

زادت الصحيفة "لا أحد هنا يشكك بوطنية الكاردينال الراعي، لكنّ الكثيرين يربطون بينها وبين إصرار الراعي على الإمساك بسلطة لبنانية تشبه نموذج 1920، وهذا يتطلب تقليص (حجم) حزب الله لجهة الدور العسكري والسياسي والقوة الاقتصادية التي يتمتع بها نتيجة الدعم الإيراني. إنّ محاولة الراعي الجديدة ليست إلا محاولة لإعادة إنتاج لبنان القديم".

وخلصت إلى القول "هذا ما يفرز حقيقة وهي أنّ كلّ الطوائف اللبنانية مصابة بقلق سياسي داخلي من قوّة حزب الله الإقليمية واللبنانية الداخلية السياسية، وتعرف أنّ العودة إلى سلطة 1920 يجب أن تمرّ بتقليص أدوار حزب الله الإقليمية واللبنانية، مع تحالف مع القوى الغربية الراعية الأساسية للبنان القديم. إلى أين يذهب لبنان؟ حزب الله المقاوم هو الوحيد القادر على الاستمرار في التصدي للعدو 'الإسرائيلي' مع الاحتفاظ بعلاقات حسنة بين الطوائف، ولن يتخلى عن هذه الطريقة التي تحمي لبنان".

ما الذي يمكن فهمه من هذا الكلام الإيراني الوقح؟ الجواب، بكلّ بساطة أنّ للبنان دورا يؤدّيه لمصلحة "الجمهوريّة الإسلاميّة". من أجل تأدية هذا الدور، على لبنان أن ينسى ماضيه الغني والمزدهر. أي على لبنان أن يتجاهل أنّه كان بلدا يعيش أهله في ظلّ بحبوحة وذلك منذ ما قبل الاستقلال في العام 1943. كانت فيه جامعات ومدارس وصحافة وكهرباء وماء ومدن نظيفة. كانت فيه مصارف وكان المركز المالي والتجاري للمنطقة. كان فيه مرفأ بيروت وكانت بيروت إحدى أجمل المدن على شاطئ المتوسّط. لم يعد مطلوبا من بيروت أن تكون أكثر من ضاحية فقيرة من ضواحي طهران.. مدينة يتحكّم بمطارها وكلّ مرفق فيها "حزب الله" الذي ليس سوى لواء في "الحرس الثوري" الإيراني.

لعلّ أخطر ما في مقال "كيهان" الإشارة إلى لبنان 1920، أي إلى تاريخ إعلان دولة لبنان الكبير. هل بات مطلوبا تغيير حدود لبنان، بعد عزله عربيّا، في ضوء التدخل العسكري الإيراني في سوريا عبر "حزب الله"؟ أدّى هذا التدخّل إلى إزالة الحدود بين البلدين من منطلق مذهبي. أكثر من ذلك، استطاع "حزب الله" خلق أمر واقع جديد على طول الحدود اللبنانية – السورية في ضوء الرغبة الإيرانيّة في تغيير التركيبة الديموغرافيّة في سوريا.

باختصار شديد، دخلت إيران مع انتخاب إبراهيم رئيسي رئيسا للجمهوريّة مرحلة جديدة تتسّم بالمزيد من العدائية للبنان ولكلّ ما له علاقة بثقافة الحياة فيه. الوضع في البلد يزداد سوءا يوما بعد يوم في غياب رئيس للجمهوريّة يظنّ أن إيران قادرة على إيصال صهره إلى قصر بعبدا في العام 2022..

يبقى أن أفضل ردّ على مقال "كيهان" أنّ لبنان دولة غير قابلة للحياة في ظلّ تحكّم "حزب الله" بها. يبدو، من وجهة نظر طهران، أنّ على لبنان الموت من أجل أن تحيا "الجمهوريّة الإسلاميّة". كلّ ما يبدو مطلوبا هو أنّ يضحّي لبنان بنفسه من أجل صفقة تعقدها "الجمهوريّة الإسلاميّة" مع "الشيطان الأكبر" الأميركي.. وبالتالي مع "الشيطان الأصغر" الإسرائيلي الذي يجد نفسه في وضع لا يحسد عليه في ظلّ إدارة أميركيّة لم تقرّر بعد ما الذي عليها أن تفعله مع إيران وكيفية التعاطي مع سلوكها في المنطقة.

من الواضح، في ظلّ التصرّفات الإيرانية تجاه لبنان، بما في ذلك عرقلة تشكيل حكومة فيه، وهي عرقلة مستمرّة منذ ما يزيد على تسعة أشهر، أنّ ليس ما يوحي بوجود أيّ أمل بتحسن في لبنان. لا أمل بتحسّن، أقلّه في المدى المنظور وذلك في انتظار معرفة كيف سيردّ الإدارة الأميركية على السلوك الإيراني في الداخل الإيراني نفسه وفي المنطقة.. هذا إذا كانت سترد!

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk